خليفة العاضد

أقام صلاح الدين للعاضد مأتماً استمر ثلاثة ايام ، ثم شيع جثمانه ودفنه في موكب عظيم ، وأمر عامله قراقوش بفتح خزائن القصر وتوزيعها على قومه واتباعـــه ، واعتق قسما من جواري الخليفة ووهب القسم الآخر ، اما اولاده ونساؤه واقاربه وكان عـددهم ١٥٢ شخصاً فقد أخرجهم من القصر وأسكنهم داراً فسيحة احسن معاملتهم فيها واجرى عليهم النعم والخيرات ، ولكنه فرق بـين الرجال والنساء منهم كي لا يتناسلوا . وكان في القصر مكتبة حافلة بالمؤلفات الثمينة ، فوكل الى القاضي الفاضل مهمة اختيار الصالح منها للاحتفاظ به ، قيل فتسلم القاضي الفاضل منها ١٢٠ الف مجلد ، واحرق ما يدعو الى التشيع ، وباع البـــاقي وادخل ثمنه الى بيت المال .

وكان قصر الخليفة الفاطمي مجموعة قصور من اروع آثار الحضارة الاسلامية ، منها قصر الزمرد وقصر المظفر وقصر الاقبـال وقصر البحر وقصر الحريم وقصر الشوك ، ودار الوزارة ودار الضيافـة ودار الضرب ، وخزانة البنود وخزانة الكتب وحجر الصبيان ، وتسمى كلها القصر الشرقي تمييزاً لهـا من قصر آخر غربي اصغر منه

وهو يقوم الى جانبه ، وبينهما ساحة يقال لهـــا الميدان ، ووراء متنزه كبير يسمى البستان الكافوري يحده من الغرب خليج القاهرة الذي تمتد عليه متنزهات الخلفاء الفاطميين الحـــافلة بالاشجار والرياحين .

ولم ينتقل صلاح الدين الى قصر الخلافة ، بل بقي في دار الوزارة على ضآلة شأنها بالنسبة لفخامة القصر . ولكنه ما لبث ان اخـــذ يفكر في ان ينشىء على قمـة المقطم قلعة كبيرة على غرار القلاع الحصينة في مدن الشام ، ليجعل مقامه ودواوينه فيها ، ويمتنع بها ان عرض له خطر مداهم . كما فكر في بناء سور حول المـدن الاربع التي تألفت منها مدينة القاهرة ، وهي الفسطاط التي انشأها عمرو ابن العاص ، والعسكر التي انشئت في عهد العباسيين ، والقطائع التي انشأها احمـــد بن طولون ، والقاهرة التي انشأها جوهر الصقلي .

وقد عزز الناصر مقام اقاربه وابناء عشيرته في الجيش والحكومة ، واستقدم اباه واخوته من الشام واحـاط نفسه بستار منهم . ولم تكن هذه الحيطة التي يحتاط بها لتدل على شيء بقـدر ما تدل على تخوفه من ان يزحف نور الدين زنكي بجيوشه الى مصر لانتزاعها من يده ، او ان يحاول اغتياله او الانتفاض عليه قائد ذو بأس أو امير فاطمي موتور .

وفي الحق ان نور الدين كان واغر الصدر عـلى صلاح الدين ، لاستقلاله بحكم مصر من دونه ، وان كان لم يدع عملا يدل على ولائه له إلا قام به ، فأمر بالخطبة له بعد الخليفة العباسي ، وضرب النقود

باسمه ، وارسل اليه الهدايا الثمينة من كنوز القصر الفاطمي . ولكن ذلك كله لم يكن ليخدع نور الدين عما يجري في مصر ، وعن الهدف الذي ينزع صلاح الدين اليه .

وكان استيلاء الفرنجة على مدينة الشوبك في فلسطين قد عرقل سير التجارة بين مصر والشام وأضرّ بهـا ضرراً كبيراً . فجهز صلاح الدين حملة لغزوها والاستيلاء عليها . على انه ما كاد يهاجمها وينال منها ، حتى علم ان نور الدين قد اقبل لمساعدته والاجتماع به هناك . قال ابن خلكان : فخوفه اصحابه وخواصه من الاجتماع بنور الدين . وزاد ابن الاثير على ذلك انهم قالوا له : « ان دخل نور الدين بلاد الفرنجة وهم على هذه الحال ، انت من جانب ونور الدين من جانب ، ملكها ، ومتى زال الفرنجة من الطريق وأخذ ملكهم لم يبق امامه ما يعوقه عن الاستيلاء على مصر . ولئن جاء نور الدين وانت هنا فلا بد لك من الاجتماع به ، وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما يشاء ، فلا تقدر على الامتناع عليه ، والمصلحة هي في الرجوع الى مصر » . وقد اغضب ذلك السلطان نور الدين غضباً شديداً ، ورأى فيه دليلاً صارخاً على تهرب عامله منه ، ولم يجد لذلك الا تفسيراً واحداً هو ان صلاح الدين قد انفصل نهائياً عنه ، فقرر الزحف الى مصر والاستيلاء عليها . على انه ما كاد يستريح من الفتن التي كانت تشغله في ناحية الجزيرة ، ويعتزم الشروع في الحملة على مصر ، حتى وافته من صلاح الدين كتب تؤكد له طاعته وولاءه .

اسقط في يد نور الدين ، واعوزته بعد هذه الكتب الحجة التي

يبرر بها حملته على مصر ، فأراد تجربة صلاح الدين ، فكتب اليه ان يخرج لغزو الفرنجة في الكرك ، على ان ينهد هو ايضاً الى هناك ، فايهما سبق صاحبه اقام الى ان يوافيه الآخر . فذهب الناصر بجيشه الى الكرك فحاصرها ، ولكنه ما كاد يعلم باقتراب نور الدين وجيوشه لمشاركته في فتحها ، حتى عاوده الخوف منه . واتفق ان بلغه في ذلك الحين ان اباه نجم الدين هوى عن جواده في غيابه فمرض مرضاً شديداً ، فاحتج بمرض ابيه وعاد الى مصر قبل وصول جيوش الشام الى الكرك . وكان ابوه يعاني سكرات النزع فلم تمض عدة ايام على عودته حتى مات ، فحزن عليه حزناً عظيما لأنه فقد فيه الأب الحادب والمعلم الراشد والصديق المعين .

واخذ صلاح الدين يسعى دائباً لتوسيع ملكه وتقوية سلطانه ، فأرسل اخاه طوران شاه الى الشواطىء الافريقية فاستولى على سواحل طرابلس وتونس حتى مدينة قابس . ثم ارسله الى السودان بلاد النوبة فاستولى عليها . ثم بعث به الى اليمن كي يخضعها لحكمه ويضمها الى ملكه . وقد شجعه على مهاجمة اليمن واغراه بها ، عمارة اليمني الشاعر الذي اراد الخروج على صلاح الدين وجماعة من شيعة العلويين ، فزينوا لأخيه طوران شاه غزو اليمن لابعاده عن مصر مع قسم كبير من الجيش ، وكتبوا الى الفرنجة في الساحل وفي صقلية للوثوب على صلاح الدين ، ووعدوهم بأن يثوروا عليه متى وصلت جيوشهم الى مصر ، ولكنهم اختلفوا فيمن يكون الخليفة وفيمن يكون الوزير فعلم صلاح الدين بأمرهم وبطش بهم في شهر رمضان سنة ٥٦٩ (نيسان سنة ١١٧٤) وصلب عمارة الشاعر .

وعرف ذلك الفرنجة في فلسطين فتوقفوا عن مهاجمة مصر ، بينما اقبل اسطول صقلية الى الاسكندرية وهو لا يعلم باخفاق المؤامرة فحاصرها ، فخف صلاح الدين لنجدتها ورد الغزاة من حيث أتوا بعد ان كبدهم خسائر كبيرة . أما طوران شاه فتابع مسيره الى بلاد اليمن فاحتلها ، واستولى على عدن ، وضمها الى مملكة اخيه ، واعاد فيها الخطبة للخليفة العباسي .

وكان نور الدين زنكي قد استقر يقينه بعد حادثة الكرك ، على ان صلاح الدين قد خرج عليه وخلع طاعته ، فتأجج غضبه وأقسم لينتقمن منه اشنع انتقام . ولكن الحظ خدم صلاح الدين مرة اخرى . فان نور الدين ما كاد يعدّ العدة للحملة على مصر ، حتى فاجأه الموت في ٢١ شوال سنة ٥٦٩ (١٥ ايار سنة ١١٧٤) وخلفه في الحكم ابنه الملك الصالح اسماعيل وليس له من العمر الا احد عشر عاماً . فنسي صلاح الدين لما بلغه نعيه ، ما كان بينهما من جفاء ، وذكر وجهه الوسيم وخلقه الكريم وذكر نزاهته وعدله ، فحزن عليه حزناً عظيما .

ثم ما لبث الموت ان انقذ الناصر من خصم قوي آخر ، هو الملك اموري الذي توفي في ذلك الشهر نفسه تاركا الملك من بعده لولده الصغير بلدوين الرابع . وبذلك اتسع امام صلاح الدين الأمل لتحقيق الأحلام التي تراوده ، ولم يبق ثمة من يستطيع الوقوف في طريقه اليها .

في سبيل حلم عظيم

اضطرب الامن في ديار الشام بعد موت نورالدين زنكي ، وكثرت الفتن والحروب بين امراء الانحاء الذين استقل كل منهم بما يملكه او طمع في ضم ملك جاره اليه او في احتلال مقام السلطان الراحل . وقد اشتد بذلك الخطر من توغل الفرنجة في البلاد، لاسيما وانهم كانوا الملجأ الذي يلجأ اليه كل امير مغلوب او امير طامع ، للاستعانة بهم على خصومه من الامراء الاقوياء . وكان ابرز هؤلاء الامراء واعظمهم شأناً ، شمس الدين محمد بن عبدالله المقدم الذي تولى رعاية الملك الصالح اسماعيل بن نورالدين وخليفته في الحكم ، وسيف الدين ابن عم الملك وصاحب الموصل في عهد ابيه الذي سارع الى الاستيلاء على ارض الجزيرة ، وشمس الدين ابن الداية صاحب حلب الذي اراد ان يأخذ الملك الصغير الى كنفه فاحضره الى قصره من دمشق على كره من امرائها واذا بكمشتكين أحد قواده يثور عليه فيودعه السجن مع عدد كبير من الامراء ثم ينحاز الى جانب الفرنجة ليتقوى بهم .

وأمام هذه الفوضى العاصفة ، أخذ الحلم الذي كان يراود صلاح الدين يعاوده بالحاح ، بل تحول في نظره الى واجب ينبغي له

ان يقوم به ورسالة من الحتم عليه ان يؤديها ، إذ انشقت امامه الطريق لانشاء امبراطورية كبرى يبعث بها امبراطورية بغداد بتوحيد البلاد الناطقة بالضاد وانتزاع أراضيها من أيدي الفرنجة .

ولقد كان واثقاً من أن ملايين العرب سيناصرونه في تحقيق هذا الحلم العظيم ، وانهم سيشعرون كما يشعر هو ، بانه واحد منهم ليس غريباً عن الارض العربية التي وُلد عليها وتغذّى منها ودرج في فلواتها ، او عن التقاليد العربية التي نشأ عليها وتأصلت في نفسه مذ كان في المهد صبياً ، او عن اللغة والآداب العربية التي ازدهرت في قصره وعهده ايما ازدهار ، ومن ثم فليس هو غريب ايضاً عما يشجي العرب وعما يطمحون اليه ، ولا بدع في أن يتخذ الامل الذي تجيش به نفوسهم هدفاً ينزع اليه وجنوده المتعددي القوميات ولكنهم في كثرتهم عرب من سكان البلاد ، واللغة العربية هي اللغة الجامعة لهم ، والثقافة العربية هي البوتقة التي صهرتهم والرابطة التي وحدتهم فغدوا يُعرفون بها وفي ظلها يجاهدون .

وكان أول ما فكر فيه ، وأراد أن يخطو به الخطوة الأولى نحو تحقيق هدفه ، الانتصار للملك الصالح اسماعيل بن نورالدين ، ووضعه تحت كنفه ليتسنى له بذلك توحيد بلاد الشام وضمها الى مملكته في مصر . فكتب اليه والى الامراء الذين يحيطون به ويتنازعون على ملكه ، كتاباً اعلن فيه ولاءه له وعزمه على نصرته والانتصاف له من كل من يناوئه ، لانقاذ البلاد من التفرقة ودفعاً لخطر الفرنجة ، وقد قال فيه : « تختلف القلوب والايدي فتبلغ الاعداء مرادها وتعدم الآراء رشادها ، وتنتقل النعم التي تعبت الايام فيها الى ان

اعطت قيادها ، فكونوا يداً واحدة واعضاداً متساعدة ، وقلوباً يجمعها ود وسيوفاً يضمها غمد ، ولا تختلفوا فتنكلوا ولا تنازعوا فتفشلوا ، وقوموا على أمشاط الارجل ولا تأخذوا الامر باطراف الانمل ، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان .. » الى ان يقول بصدد الملك الراحل وولده القاصر : « ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله وقائم لا نسلمه . وقد كانت وصيته الينا سبقت ورسالته عندنا تحققت ،بان ولده القائم على الامر ، وسعدالدين كمشتكين الأتابك بين يديه ، فان كانت الوصية ظهرت وقبلت والطاعة في الغيبة والحاضر اديت وفعلت ، وإلا فنحن لهذا الولد يد على من ناوأه وسيف على من عاداه .. الخ » ولم يقتصر صلاح الدين على هذا بل ضرب النقود المصرية باسم الملك الصالح ، وأمر بان يخطب له على المنابر بعد الخليفة العباسي ، ولم يدع مناسبة الا اغتنمها كيما يبين فيها للسوريين غيرته على الملك الصغير واهتمامه بامره واستعداده لبذل وسعه في سبيله .

ثم أرسل الى الخليفة العباسي المستضيء بالله كتاباً يوغر صدره فيه على ما آلت اليه الحال في بلاد الشام ويعلن استعداده للعمل على تغييرها بتحرير البلاد وتوحيدها في ظل خلافته مذكراً إياه من طرف خفي بانه هو الذي جعل منابر مصر واليمن والمغرب تتجاوب باسمه مع منابر الشام وبغداد بعد أن انقطعت عن ذلك نحواً من مئتي سنة ، وقد قال فيه : « ... وتوافت الينا الاخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها ،وتشتت الامور وتقطعها ، وان كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمع اليه

طالب ، والافرنج قد بنوا قلاعاً يتخوفون بها الاطراف الاسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وامراء الدولة النورية قد سجن كبارهم وعوقبوا وصودروا ، وان المماليك قدموا الايدي والاعين والسيوف ، وسارت سيرتهم في الامر بالمنكر والنهي عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الافرنج يداً ويجعلهم لظهره سنداً » ثم يقول : « وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الاسباب لفتحه ، وامر الكفران لم يتجه العزم في قلعه ، والا نبتت عروقه ، واتسعت على اهل الدين خروقه » الى ان يقول : « وإنا لا نتمكن بمصر منه ، مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوة . فاذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخيل مستريحة ، والعساكر كثيرة الجموع ، والاوقات مساعدة ، وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة وامور مختلة ، وآراء فاسدة وامراء متحاسدة ، واطماع غالبة ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد ابيه ، فأنا به اولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء في خدمته ، وهم عاملون بظلمه . والمراد الآن هو كل ما يقوّي الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمع الامة ، ويحفظ الالفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاد ، وأن يطبق بالاسم العباسي كل ما تطبقه العهاد ، وهو تقليد جامع لمصر واليمن والمغرب والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا » .

ولبث الملك الناصر يترقب الفرص ولا يقدم على أيّ امر يثير

غضب الشام عليه ومخاوفها منه ، حتى دعاه ابناؤهـــا انفسهم للزحف اليها .

ذلك ان ابن المقدم ومن يواليـــه من امراء دمشق ، لما رأوا كمشتكين قد تغلب على ابن الداية وأنصاره وسجنهم ، تخوفوا منه وارسلوا الى سيف الدين غازي صاحب الموصل ان يقبل الى دمشق ليحميهم من عدوانه ، فأبى سيف الدين ان يجيبهم الى طلبهم ظناً منه انهم يمكرون به ويتآمرون مع كمشتكين على قتله ، ثم بادر الى اعلان طاعته لابن عمه الملك الصالح وأقره هذا على ما بيـــده من البلاد . فاشتدّ حينئذ خوف امراء دمشق ، واتجهوا شطر صلاح الدين فكتبوا اليه ان يحضر لانقاذهم من خطر احدق بهم . وكأن الملك الناصر كان بانتظار هذه الدعوة ، فلم يكد يتلقاها حتى اقام بهاء الدين قراقوش حاكماً بمصر مدة غيابه ، ثم حشد جيشه وانطلق بـــه فاخترق عباب الصحراء وبلغ تخوم سورية .

أقبل صلاح الدين الى الشام مدعواً من اهاليهـــا مؤيّداً من الخليفة العباسي ، قوياً بجيشه وخبرته وبعد نظره ، تتقدّمه شهرة باذخة واسم مقترن في الاذهان بالبأس والنبل والمروءة ، فكانت المدن التي مرّ بها تستقبله بمجالي الفرح والزينة ، والأمداد تلتحق به من كل صوب ، حتى بلغ دمشق في آخر ربيع الاول سنة ٥٧٠ (اواخر تشرين الاول سنة ١١٧٤) فكان اول ما صنعه انه ذهب الى دار ابيه التي قضى فيها سني حداثته فجلس حتى اقبل رسول يدعوه الى القلعة فمضى اليها وأخذ ما فيها من الاموال والكنوز ففرّقها على الاهالي ، فاستبشر الناس بهذه البادرة الكريمة ، ومدحه

الشعراء بالقصائد الغراء . وكان ما يفتأ يؤكد في كل مناسبة وكل مجلس بانه في طاعة الملك الصالح ، وانه انما قدم لرعايته وحفظ وحدة البلاد وحمايتها من الفرنجة ، فعزّز ذلك من مكانته وجمع حوله القلوب المتفرّقة .

ولما اطمأن الى التفاف دمشق حوله وتأييدها له ، عهد بها الى اخيه سيف الاسلام ، وشخص الى حمص فاستولى عليها ولكن قلعتها امتنعت عليه فأمر فريقاً من جيشه بمحاصرتها وسار الى حماه ، وكان الوالي عليها الامير عزالدين جورديك فرفض أن يستسلم له ، ولكنه ما كاد يعلم بمهمته ويتأكد من انه انما يعمل لاعادة بلاد نورالدين الى ولده ، حتى سلمه المدينة وقبل ان يكون رسوله الى كمشتكين صاحب حلب فلم يصغ هذا اليه بل قبض عليه وزجه في السجن مع غيره من الامراء المعتقلين .

وصل صلاح الدين الى حلب في الثالث من جمادى الاولى سنة ٥٧٠ (٣٠ كانون الاول سنة ١١٧٤) وفيها الملك الصالح ووزيره كمشتكين ، فاذا بها قد أغلقت ابوابها في وجهه ، فأقام الحصار عليها بعد ان اعلن اهلها انه لم يأت اليها معادياً وإنما أتى لانقاذ سيده الملك الصالح من الامراء المستبدين وعلى رأسهم كمشتكين . ولم يكن الملك الفتى مطمئناً لوزيره ، ولكن قلبه لم يطمئن ايضاً لصلاح الدين ، وقد خشي أن تؤثر أقواله في الناس فطاف بهم قائلاً: « قد عرفتم إحسان أبي اليكم ، ومحبته لكم وسيرته فيكم ، وانا ربيبكم ونزيلكم واللاجيء اليكم ، كبيركم عندي بمنزلة الأب ، وشابكم بمنزلة الاخ ، وقد جاء هذا الظالم الجاحد احسان والدي اليه ،

يأخذ بلدي ولا يخشى الله تعالى » وأخذ يبكي فأبكى الناس معه ، وتحمسوا له ، وقاوموا صـــلاح الدين بكل ما يملكون من قوة .

ولكن ضغط الهجوم واثر الحصار كانا يشتدان على المدينة يوماً فيوماً ، حتى أدرك كمشتكين انها لن تستطيع الصمود طويـلا اذا ظلت معتمدة على قواها الخاصة ، فراسل راشد الدين سنان رئيس الطائفة الاسماعيلية المعتصم بجبل السماق ليرسل من يفتك بصلاح الدين وضمن له على ذلك أموالا جمة وعدة من القرى ، واستنجد بامـــير طرابلس ريمون الثالث (القومص) الذي كان نور الدين قد اسره عدة سنوات فاطلق كمشتكين سبيله لما تولى حـــكم حلب . فأما رئيس الطائفة الاسماعيلية فقـد ارسل الى صلاح الدين جماعة من اتباعـه الفتاكين المعروفين بالحشاشين لاغتياله ، فجاءوا الى جبل الجوشن بضواحي حلب واختلطوا بالجنود ، فعُرفوا ونشبت بينهم وبين بعض رجال صلاح الدين معركة عنيفة ، ثم وثب احدهم الى خباء صلاح الدين وقد شهر بيده سكينة ليقتله بها ، فلما صار الى باب الخيمة اعترضه احد الامراء فقتله وطلب الباقين فقُتلوا بعد ان قتلوا عدداً من الجنود . واما ريمون ، وكان في ذلك الحين القيم على بلدوين الرابع ملك القدس ، فقد وجـــدت دعوة كمشتكين كل التحبيذ في نفسه ، فاسرع بجيشه الى حمص ليستولي عليهـا في غفلة من صلاح الدين ، ولكن ما كاد الملك الناصر يعلم بذلك حتى فك حصاره عن حلب وهرع الى ملاقاة الفرنجة ، فادابهم يعودون من حيث اتوا تجنباً لمنازلته . فتابع حينئذ سيره الى دمشق ، واستولى وهو في طريقه اليها على قلعة حمص وعلى مدينـة بعلبك التي قضى

فيها سني طفولته الاولى .

ولما رأى كمشتكين وصحبه في حلب ، ما صار اليه صلاح الدين من نفوذ وقوة في بلاد الشام ، تخوفوا من عاقبة ذلك، واتفقوا مع سيف الدين غازي صاحب الموصل على مهاجمته في دمشق ، وزحفوا الى هذه المدينة في جموع غفيرة . فارسل صلاح الدين اليهم ينصحهم بحقن دماء الابرياء ، ويحذرهم من عدوان الفرنجة ، ويرغبهم في الصلح مقابل تسليمه اياهم جميع المدن التي استولى عليها في سورية ، على ان يبقى نائباً الملك الصالح في دمشق . فأبى قادة الجيش المهاجم ان يصالحوه الا اذا سلمهم كل ما بيده من البلاد وعاد الى مصر وليس له من الامر في دمشق شيء . فعمد الناصر حينئذ الى جيشه فجهزه وخرج به لملاقاتهم ، فاشتبك معهم على مقربة من حماة في معارك طاحنة ، وانتصر عليهم في التاسع عشر من رمضان سنة ٥٧٠ (١٣ نيسان سنة ١١٧٥) انتصاراً عظيماً حتى اصبح الواحد منهم لا يلوي على اخيه من شدة فزعه وخوفه ، وما زالوا في فرارهم وهو من ورائهم يستولي على اثقالهم ، حتى دخلوا حلب » . أما سيف الدين فعاد الى الموصل يتأهب لخوض معركة جديدة ، وفي اعتقاده ان صلاح الدين لا بد من ان يهاجمه في عقر داره فخير له ان يسبقه الى الهجوم ، وما لبث ان حشد جيشاً مؤلفاً من ستة آلاف مقاتل ، وخرج الى ملاقاة جيوش صلاح الدين ، فاشتبك معها في مكان يقال له تل السلطان ، فاذا بجيشه يتمزق شر ممزق ، فيغنم الناصر مؤونته وعتاده ويأسر عدداً كبيراً من افراده ويهرب الباقون الى حلب ، ويواصل هو سيره الظافر الى شمال حلب فيحتل بزاعة

ومنبج وعزاز .

وفي خلال حصار صلاح الدين لقلعة عزاز ، اندس بين جنوده اربعة من الحشاشين تزيوا بزيهم وحاربوا في صفوفهم وابدوا بسالة عظيمة . وذات يوم ، بينما كان جالساً في خباء احد امرائه ، وثب عليه أحدهم فضرب رأسه بسكين ، فاصابت الزردية التي كان يرتديها دائماً فلم تؤثر فيها ، وأحس الحشيشي بصفائح الحديد على رأسه ،فمد يده بالسكينة الى خده يريد ان يطعنه بها ، فلم يصبه الا مخدش صغير ، لان صلاح الدين اسرع فقبض على رأس الحشيشي وجذبه فألقى به على الأرض ثم جاء اعوانه فقتلوه . ثم تتابع على الخباء الحشاشون الثلاثة الآخرون ،وكل منهم يريد قتل صلاح الدين فيلقى حتفه . وشاع في البلاد ان صلاح الدين قد قتل ، فأرسل القاضي الفاضل كتاباً الى الملك العادل اخي صلاح الدين يطمئنه فيه ويروي له حقيقة الحادث وقد جاء فيه : « السلامة شاملة ، والراحة بحمد الله للجسم الشريف الناصري حاصلة ، ولم ينله من الحشيشي الملعون إلا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة انقطعت لوقتها واندملت لساعتها ، والركب على رسمه ، والحصار لعزاز على حكمه ، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدراً ولا ما يشغل سراً » .

وقام في ذهن صلاح الدين ان كمشتكين هو الذي اغرى به اولئك الخوارج وأرسلهم لاغتياله ، فعاد لتوه الى حلب وحاصرها وهاجمها هجوماً قوياً ، فخرجت اليه ابنة نور الدين زنكي وهي بنت صغيرة ، فاستقبلها احسن إستقبال وقدم اليها المال والهدايا ،

وسألها عما يطلبه اهلها فأجابت انهم يريدون عزاز فوهبها اياها ، ثم أوصلها الى باب المدينة بنفسه . وعمد بعد ذلك الى اطلاق سراح الاسرى الذين وقعوا في يده في جميع المعارك التي خاضها في انحاء حلب ، وكان بينهم عدد من الجرحى قد احسن معاملتهم والعناية بهم ، فذهب الجميع يثنون عليه ويلهجون بحمده .

ولما اشتد الحصار على حلب ، وخشي الملك الصالح ان يفقد هذا الملجأ الاخير الذي يلوذ به ، عقد مع صلاح الدين صلحاً أقره فيه على ما بيده من البلاد التي افتتحها ، فأصبح سيداً على دمشق وحمص وحماه والمدن الصغيرة المنتشرة في ضواحيها وضواحي حلب ، وعاد الى دمشق فوصلها في شهر شوال من تلك السنة (ايار) . وما كاد يستقر فيها حتى وصلت اليه خلع الخليفة المستضيء بالله ، وامرٌ بتوليه على مصر والشام . وهكذا اعترف به الخليفة العباسي سلطاناً على البلاد المصرية والسورية ، فخطب له على المنابر بدلا من الملك الصالح ، وضربت النقود في القاهرة باسمه فكتب عليها « الملك الناصر يوسف بن ايوب علا جاهه » . فتقدم شوطاً كبيراً نحو الهدف الذي ينزع اليه ، وشعر بارتياح كبير لتحرره من عبء النضال في سبيل الحصول على تأييد رسمي لعمله ، وهو عبء كان يكلفه كثيراً من العناء لانه كان يضطره الى اظهار الولاء للملك الغر الذي يحاربه ويمتنع عليه . وقد وهب على اثر ذلك الهبات ، وفرق المال ، وأمر بأن توزع على جنوده جميع المغانم التي غنمها منذ قدومه الى الشام .

وفكر السلطان في العودة الى مصر لتفقد شؤونها ، ولكنه

كان يشعر بأن بينه وبين الاسماعيليين الذين حاولوا اغتياله مرتين حساباً يجب ان يقاضيهم عليه ، فجهز جيشاً وسار به الى جبل السماق الذي يعتصمون به ، فأحرق بعض قراهم وخرب غيرها وحاصر قلعة مصياف التي يقيم بها رئيسهم راشد الدين سنان ، فاستغاث هذا بصاحب حماة خال السلطان ورجاه ان يشفع لهم عند ابن اخته ، فتشفع له وطلب منه ان يعفو عنهم فأجابه الى طلبه .

وكان صلاح الدين قد هادن الفرنجة بواسطة صديقه همفري ، وحالف الملك الصالح ، فما كاد يعود من هذه الحملة التي اخضع فيها فئة كانت في اكثر الاحيان سيفاً بيد الفرنجة على ابناء البلاد ، حتى وجه جنوده الى منازلهم ليستريحوا من متاعبهم ويتمتعوا بمغانمهم ويستعيدوا قواهم استعداداً للمعارك المقبلة . واتفق ان اخاه طوران شاه اقبل لزيارته ، فأنابه عنه في ادارة بلاد الشام ، وذهب لتفقد احوال مملكته في مصر ، ورؤية اهله ونسائه واولاده .